

* * *

أُمُّ الدَّرْداء

رَضِيَ اللَّهُ عَنها

نجلاء شوقى حسن

أمُّ الدَّرداء

رضِيَ اللّهُ عَنها

انْطلقَت سَيّارةُ الرِّحلاتِ المَدرَسِيَّة ، وعليْها الطالِباتُ المُشترِكاتُ فى رِحلَةِ زِيارَةِ الحَديقَةِ الدَّولِيَّة ، ومعَهنَّ بعضُ المُشرِفات ، وكانَ الوقتُ مُبكّرا ، والجَوُّ صَحوًا مُشرِقًا جَميلا .

وعندَما توقّفتِ السَّيّارةُ أمامَ بابِ الحَديقة ، هبطتْ مِنها الطّالبات ، ودَخلنَ الحَديقَةَ فى موكِبٍ تَتقدَّمُهُ الأُستاذَةُ فائزَة ، كبيرَةُ المُشرِفات .

وكانَ بعضُ الطّالباتِ يَحمِلنَ لَوازِمَ الرِّحلَة ، من طَعامٍ وشَرابٍ وأدواتِ اللّعب ،

مثلَ الكُراتِ والمَضارِبِ وغَيرِها .

وكانتْ الحَديقَـةُ واسِعَةَ الأرْجاء ، جَميلـةً بكَثرةِ أشْجارِها بِلَونِها الأَخضرِ الجَميـل ، وكانَ يصدُرُ عن الطّالِبات ، أصواتُهُنَّ وضَحِكاتُهنَّ العالِيَة . إلى أن توقّفتِ الأُستاذَةُ فائزَة ، عِندَ مَوضِعٍ من الحَديقَةِ اخْتارَتْه ، وَطلبتْ مِنهُنَّ احْتِلالَه .

ثمَّ انطَلقتِ البَناتُ هُنا وهُنـاك ، يَلعَبنَ ويَمرَحنَ فى سَعادَةٍ وسُرور ، بَينَما جَلستِ الأُستاذَةُ فائِزَةُ مع زَميلاتِها يُراقِبنَ الطّالِبات .

وقامَتِ المُشرِفاتُ وقتَ الغَداء ، بتَوزيعِ الأطْعِمَةِ والمَشروباتِ على الطّالِبات ، ثمَّ

طَلبتْ مِنهُنَّ الأُستاذَةُ فائزَة ، أن يَجلِسنَ على هَيئَةِ دائِرَةٍ ليَسترِحنَ من اللّعب . ثمَّ أعلنتْ عنْ جائِزَةٍ قيمَتُها خَمسةُ جُنيهات ، لمنْ تَستَطيعُ من الطالِبات أن تَحكى حِكايةً عن شَخصِيَّةٍ إسْلامِيّة ، منَ النِّساءِ خاصَّة ، بِشَرطِ أن يَكونَ ما تَرويهِ عن هذه الشَّخصِيَّة ، لا تَعرِفُهُ سائرُ الزَّميلات .

فرَفعتْ ماجدَةُ يدَها مُستأذِنَة ، فأذِنتْ لَها الأُسْتاذَةُ فائزَةُ بالحَديث ، فقالَت : سأَروى لكنَّ حِكايَةَ السَّيِّدَةِ فاطِمَةَ الزَّهراء ـ رضِىَ اللّه عَنها ـ فصاحَتْ بعضُ الطّالباتِ تُطالِب كلٌّ مِنهُنَّ أن تَقومَ هى بروايَةِ القِصَّة .

فقالتْ عَبير : أنا يا أُستاذَةُ سأَروى حِكايَةَ أسماءَ بنتِ يَزيد ، فصاحَتْ الطالِباتُ كالمَرَّةِ السّابقة .

فقالَت أميرَة : أمّا أنا فسَأحْكى حِكايَةَ السَّيِّدَةِ عائشَةَ أُمِّ المؤمِنين ـ رَضِىَ اللّه عنها ـ فصاحتْ الطّالباتُ أنّهنَّ يَعرِفنَ كلَّ شَىءٍ عن أُمَّهاتِ المُؤمِنين ..

قالتِ الأُستاذَةُ فائزَة : الظّاهِرُ أنّنا لن نَجِدَ الطّالِبَةَ الّتى ستَفوز ، لأنَّ كلَّ الأسْماءِ الّتى ذُكِرت ، نَعرِفُ عنْها الكَثير . فجأةً رَفعتْ نورا يَدَها عالِيا ، فأذِنَت لها الأسْتاذَةُ فائزَةُ بالحَديث فقالَت : أمّا أنا فسأَتحدَّثُ عن أُمّ

الدَّرداء . فضحِكت بعضُ الطّالِبات ، ظنًّا مِنهُنَّ أنَّ نورا نَطقَت الاسْمَ خَطَأ . فأعادَت نورا نُطقَ الاسْمِ وقالَت : نعم سأَحكى لكُنَّ عن أُمِّ الدَّرداء .

سادَ صَمتٌ عميقٌ فى هذِه المرَّة ، على غَيرِ العادَة ، ولم تَجدِ الأُسْتاذَةُ فائِزةُ من يَعتَرِضُ مِنَ الطّالِبات ، فقالَت : حَسنًا يا نُورا ، احكى لنا عن هَذهِ الشَّخصِيَّة .

ثم طلبتْ من جَميعِ الطَالِباتِ الصَّمتَ والهُدوء ، حتّى تَنتَهِىَ نورا من قِصَّتِها .

* * *

قالَت نورا :

كانتْ أمُّ الدَّرداءِ فَقيهَةً عاقِلَةً ، وعالِمةً جَليلَةً ، واسِعَةَ الاطِّلاعِ ، وافِرَةَ الذَّكاءِ ، زاهِدَةً مُتَقَشِّفَةً . روتِ الكثيرَ عن زَوجِها أبى الدَّرداءِ ، وسَلمانَ الفارِسىِّ الَّذى آخى رَسولُ اللَّهِ ـ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ـ بينَه وبينَ زَوجِها أبى الدَّرداءِ . كذلكَ روَتْ عن أبى هُريْرَةَ ، وعن عائِشةَ أمِّ المُؤمِنين .

وروَى عنها جَماعةٌ من التَّابعينَ الكِبار ، منهم جُبَيرُ بنُ نَضير ، وابنُ أخيها مَهدِىُّ بنُ عبدِ الرَّحمن ، ومولاها أبو عِمرانَ الأنْصارِىّ ، وصفْوانُ بنُ عبدِ اللَّه ، ورَجاءُ ابن حيوَيَّة ، وهِلالُ بن يَسار ، وآخَرون .

كما أوردَ عنها كلٌّ من مُسلِم ، وأبى داوُد ، والتّرمِذىّ ، وابنِ ماجَه ، وقد ذكرَها ابنُ سَميعٍ فى الطّبقةِ الثانِيَةِ من تابعى أهْلِ الشّام .

كان أبو الدَّرداءِ عُويْمِرُ بنُ مالِكٍ بن زَيد ، صحابِيًّا من صَحابةِ رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ بعدَ غزوَةِ أُحُد ، وكانَ فَقيهًا عاقِلاً حَكيما . قالَ عنه النّبىُّ الكَريم : (عُويمِرٌ حَكيمُ أُمَّتى) . تزوَّجَ أبو الدَّرداءِ من زَوجَتين ، عُرِفتْ كِلتاهُما بأُمِّ الدَّرداء . وتَميَّزتِ الأولَى باسْمِ أُمِّ الدَّرداءِ الكُبرَى ، والثّانيَةُ باسْمِ أُمِّ الدَّرداءِ الصُّغرَى . والكُبرَى

هى خَيِّرَةُ بنتُ أبى حَدرَدٍ الأسْلَمِىّ ، تُوفِّيتْ قبلَ أبى الدَّرداءِ بسَنتَينِ بالشّام ، فى خِلافَةِ عُثمان ، والصُّغرَى هى بَطلَةُ قِصَّتِنا ، واسْمُها هُجَيمَةُ بنتُ حُيَىّ الوَصّابِيَّة الدِّمَشقِيَّة ، وتُعرفُ بأمِّ بِلال ، وأمُّ الدَّرداءِ الصُّغرى ، وتوفِّيتْ فى خِلافَةِ الأَمويّين .

كانتْ أمُّ الدَّرداءِ تَجلسُ لِلصَّلاةِ فى صُفوفِ الرِّجال ، وكانتْ ملازِمَةً للعِبادَة ، لا تَفتُرُ عن الصَّلاة ، وكانتْ تُحبُّ مجالِسَ العُلَماء . وكانَ لَها مجالِسُ عِلمٍ بدِمشقَ والقُدس ، ولها تَلاميذُها منَ النّساءِ والرِّجال .

وكانتْ لَها أقوالٌ فى العِلمِ والحِكمَة ، مِنها « أَفضلُ العِلم المَعرِفَة » و« تَعلَّموا الحِكمةَ صِغارًا تعمَلوا بها كِبارا » و« ما وَجدتُ شيئًا أشفَى لصَدرى ولا أحْرَى أن أُصيبَ به الّذى أُريدُ من مَجالِسِ الذّكر » .

وكانتْ أمُّ الدَّرداءِ زاهِدَةً ورِعَةً دائمةَ التّذكُّرِ لِلمَوت ، وكانَ رجلٌ قد قالَ لها « إنّى لأجِدُ فى قَلبى داءً لا أَجِدُ له دَواء ، وأجدُ قَسوَةً شَديدَةً وأمَلاً بَعيدا » . فقالتْ له : « إنّ شِفاءَك فى اطّلاعِكَ على القُبور ، ومُشاهَدَةِ المَوْتَى » .

ولّما تُوفّىَ أبو الدَّرداء ، خَطبَها الخَليفَةُ مُعاوِيَةُ بنُ أبى سُفيانَ لنفسِه ، فقالَت : « لا واللّه لا أتزَوَّجُ ثانِيَةً فى الدُّنيا حتّى أتزوَّجَ أبا الدَّرداءِ إن شاءَ اللّهُ فى الجَنّة » .

وكانتْ أمُّ الدَّرداءِ تَقضى وقْتَها مُعظَّمةً عندَ بنى أُميَّة ، تقيمُ ببَيتِ المَقدسِ ستّةَ أشهُر وبدِمشقَ ستّةَ أشهُر ، مُتفرّغَةً للعِبادَةِ والذّكر ، ولِمَجالِسِ العِلم .

وكانَ الخَليفَةُ الأَمَوِىُّ عبدُ المَلكِ بنُ مَروان ، يُجلُّها ويُقدِّرُها ويَحضُرُ مجالِسَ عِلمِها ، وكانَ كثيرًا ما يجلِسُ إلَيها فى مُؤخّرِ المَجلِسِ بدِمَشْق . وحينَ يُنادَى للصَّلاةِ كان

يَقوم ، وتَقومُ أُمُّ الدَّرداءِ مُتوكِّئَةً عليه ، حتّى يدخُلَ بِها المَسجدَ فتَجلِسَ مع النِّساء ، ويَمضى هو إلى المَقامِ ويُصلّى بالنّاس .

وبعثَ عبدُ المَلكِ إلَيها فكانت عِندَه ، فلمّا كان ذاتَ لَيلة ، قامَ عبدُ المَلِكِ من اللَّيل ، فدَعا خادِمَه فأبطأَ عنْهُ فلَعَنه . فلمّا أصبحَ عبدُ الملِكِ قالتْ له أُمُّ الدَّرداء : « قد سَمِعتُكَ اللَّيلةَ تَلعنُ خادِما » ، قالَ : « إنّه أبطأَ عنّى » . قالتْ : «سمِعتُ أبا الدَّرداءِ يقول : قالَ رسولُ اللّهِ ــ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ــ : « لا يكونُ اللّعانونَ شُفعاءَ ولا شُهداءَ يومَ القِيامَه » . فاستحى مِنها

عبدُ المَلكِ ووَعدَها ألاّ يَعودَ إلى شَتمٍ أو لَعنٍ أبدا .

عُمِّرتْ أُمُّ الدَّرداءِ بعدَ وَفاةِ أَبى الدَّرداء ، وماتَتْ بعدَهُ بنحوِ نِصفِ قَرن ، فلقدْ كانتْ وفاةُ أبى الدَّرداءِ سنةَ ٣٣ هـ ، فى خِلافَةِ عُثمانَ وقبلَ مَقتَلِه بعامَين ، أمّا وفاةُ أمِّ الدّرداءِ فقد كانتْ سنةَ ٨١ هِجريَّة . ولقد دُفِنتْ فى دِمشقَ ببابِها الصَّغير ، وقبرُها لا يزالُ يُزارُ حتّى اليَوم .

* * *

قالتِ الأُستاذَةُ فائزَةُ فى رِضًا وسُرور :

ـ إنّكِ تَستحِقّينَ الجائزةَ عن جَدارَةٍ يا نورا .

ثـمَّ طلبـتْ مـن الزَّميـلاتِ والطّالِبــاتِ أن يُصفّقنَ لَها .

ثم نهضَــتِ الأُستاذَةُ فـائِزة ، وكذلِـكَ جميـعُ المُدرِّسـاتِ والطّالبـات ، وتقدَّمـت نحـوَ نـورا تَضُمُّهـا إلَيهـا ، وتُقـدِّمُ لهـا قيمـةَ الجـائزَة ، خَمسةَ جُنَيهات ، ثمَّ سألَتها عمَّن أخبرَها عن هَذهِ الشَّخصِيَّةِ الجَليلَة .

فقالت لَها نورا : فى بَيتِنا مَكتبـةٌ لأبـى ، بِهـا كتبٌ فى كلِّ العلُوم . فعندَما أجدُ فـى وَقتـى فَراغا أشغَلُ نفسى بقراءةِ الكُتـب ، فـتَزيدُنى عِلمًـا ومَعرِفَـة ، وأجـدُ مـن أبـى وأُمّـى كــلَّ تَشجيع .

قالتْ الأُستاذَةُ فائزَة : فى الحَقيقَةِ يا ابْنَتى لـم أكـنْ أعـرفُ شـيئًا عــن أمِّ الــدَّرداء ، وقــد عَرَفتُها الآنَ ، فشكرًا لكِ يا ابْنَتى .